شعراء ونقاد؟..

سألني صديق أديب، يصدقني الود استسر عني زمناً: من أحببت من شعرائنا القدامى؟ أجبت: ثمة شاعران شغفت بهما فجعلتهما نبراساً اهتدي بنوره في أدبي وحياتي: أحدهما المتنبي الذي فتنني باعتزازه بشخصيته، وحرصه حتى في اشد مدائحه إسرافاً، على التعبير عن مكنون نفسه، وعن تجاربه ونظراته الصادقة في الحياة! والثاني: المعري الذي أثار بالغ إعجابي، لما ألفيت في شعره ونثره من فلسفة إنسانية صادقة، وحرص على كرامة الإنسان وكبره، وتصوير لموقفه من المجتمع والحياة والكون بوجه عام.

قال بعد تفكر: ومن أحببت من شعرائنا الجدد؟.

قلت ضاحكاً: المغفلين..

قال وقد انفجر غيظه: ما مأتى إعجابك؟

قال واجماً وقد تربد وجهه غضباً: من؟

قلت في اطمئنان يشوبه حذر: المغفلين.. المغفلين..

قلت ساخراً: إنعدام مواهبهم، وغرورهم، وضعف تجاربهم وسقوطه في حمأة تقليد الغربيين الأعمى في أساليبهم ومذاهبهم، واعتقادهم الخاطئ ان «تجديدهم» لا يصلح إلا به. لذا راحوا يتبعونهم في ما ينظمون حتى أمسوا كذلك المغفل..

ثم ما لبثت أن لزمت الصمت هنيهة، لا أنبس بحرف كيما أثيره.. وإذ ألفاني مغرقاً في صمتي، لم يتمالك ان بدهني هاتفاً: ويحك... ما حكاية المغفل التي رمت بثها فأحجمت؟.

قلت: أخشى ان تكرب نفسك!.

قال مخافتاً في صوته وقد زايله الغضب: لا عليك... إروها فلربما تناهيت عن الاعجاب بهم كما تناهيت انت عنه!.

قلت بعد ان ساورني منه لين: زعموا ان مغفلاً كان يرى امرأته تضرم الحطب فتنفخ فيه حتى يشتعل، فاحتاج يوماً في بعض شأنه إلى نار، ولم تكن امرأته في دارها، فجاء بالحطب وأضرم فيه، وجعل ينفخ، وكان الحطب رطباً فدخن ولم يشتعل، ففكر المغفل قليلاً، ثم ذهب فلبس ثوب امرأته، وعاد إلى النار، وكان الحطب قد جف، فلم يكد ينفخ حتى اشتعل وتضرم، فايقن المغفل ان النار تخاف امرأته، وانها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها!.

ما إن فرغت من رواية قصتي حتى رأيت صديقي الأديب وقد أطرق هنيهة لا يدير لحظاً، ولا يحير لفظاً، فأحسست وأنا ارامقه كأن ناراً تتسعر في احشائه ثم ما عتم أن هتف وقد استبدت به رعدة ومن أحببت من «نقادنا الجدد»؟.

قلت وأنا أبسط له اسرة وجهي ما لك ولهم؟ حسب ما أنبأتك برأيي في «الشعراء»!..

قال وهو يجسني بعينه: اردت أن أتعرف خبرهم!..

قلت ضاحكاً: الجهلاء السفهاء..

قال دهشاً وهو يكتم غضباً بان في وجهه: هل نقادنا عندك جهلاء سفهاء.

قلت مطمئناً: أجل.. ألم تر كيف افتنوا في الضلالة؟ ألم يبلغك بذاء السنتهم. ألم ينفثوا في سمعك أقوالا يظهرون لك فيها شيئاً ويضمرون خلافه؟ ألم يشوهوا بجهلهم قواعد النقد الأدبي؟ دلني على «ناقد» فهم أن النقد محبة.. مبدأ أخلاقي يحياه ويؤمن به ويدعو إليه. ويكافح مخلصاً في سبيله؟.

ألم تقرأ قول تشيخوف: «تعال، اختلط، استغرق في الزحام، تنفس أدباً لكي تعرف كيف تنقد أدباً». ملأوا صدور الصحف حقداً وسموه نقداً. قد يستزلمون لهذا أو ذاك من أثرياء الحروب والدهور ويوالون هذا النافذ أو ذاك فيتفاقم تحت ريشتهم المدح والتقريظ والتكريم الأجوف ظناً منهم ان كل ذلك يرتد عليهم مدحاً وتقريظاً وتكريماً ولو أجوف!.

الفكر الفاسد أو المغرض قد يصور لك الصغير كبيراً أو يصور الكبير صغيراً. وكثيراً ما ترى بطل زعم اصحاب هذا الفكر وخطأ وهمهم وضحالة تفكيرهم واغترارهم بأنفسهم، ومن ثم سطوهم على آراء في النقد لم يهضموها أو يتمثلوها! لنتق الجهل أو التجاهل والتقليد والغرور والسفه أين الوزارات الرشيدة تعتقنا من ركود الحركة التي فيها بركة وضحالة الفكر وسخافة الثقافة وغلبة السفه وتكاثر الدكاكين»؟.

د. جهاد نعمان